السفير

الدكتور/ **محمد بن عبدالرحمن البشر**

obeikandl.com

إهداء

إلى كل ناشد عِبرة، لا يقف عند عَبرة، وطالب جِدٍّ لا يركن إلى جَد، من الأحداث متعظ، ومن المآسي ممتعض، يروم المعالي، لا يثنيه عنها خطوب الدهر وعثراته.

إلى كل راغب في الاستزادة من المعرفة بحقائق التاريخ، مستمتعاً بما سطره من قصص وأحيانا أساطير، أهديت هذا الكتاب؛ ليطل منه القارئ الكريم على مآسي الفردوس المفقود.

obeikandl.com

obeikandl.com

مُقــدّمة

عندما كنت في الصــين سـفيراً فوق العادة أبت حضارته وتاريخه إلا أن أمسك القلم؛ لأسطر شيئا عن تلك الحضارة القديمة الغنية الفريدة الغائب جلها عن مكتبتنا العربية، فسطرت كتاباً عن حضارة الصين أسميته: «حضارة الصين».

وبعـد انتقالي للعمل سـفيرا فوق العادة للمملكة العربية السـعودية لـدى المملكة المغربية الشقيقة استنشقت عبق التاريخ، فرويت ظمئي من معين مائه، وأضفت لزادي خراج حضارته، فداعبت نسماته أفكاري، وابتلت عروقي بعذوبة سلسبيله، وأقام عودي طيب غذائه.

فوضـعت كفي على خزائن ثمينة سـطرها أجـداد لنا في طياتها بعضٌ من مآسـيهم، وكثيرٌ من مباهجهم، وعديدٌ من قصصـهم، فمالت النفس إلى الكتابة عنهم، واستمالت القلب إلى نجواهم، فأخذتُ في قراءة أمهات الكتب، وتعرفت على شيوخ الكتاب مثل: ابن حيـان، والمقري، وابن بسـام، وابن خلدون، وابن حزم، وابن عبـد ربه، وابن الأبار، وابن الخطيب، والضبي، وابن بشكوال، والقضاعي، والمراكشي، وابن أبي زرع وابن دحية، وابن خاقان، وغيرهم كثير.

فجعلـت تلك الكتب خـير زادي، ورفيق وحدتي، وأنيس خلوتي، ونديم سـلوتي، وطيب مهجتي، فنادمتها في كل ليلة من السـاعة السادسـة مساء حتى ما بعد منتصف الليل، لا يصدني عن مؤانستها غير ما يقتضيه عملي الوظيفي، وقد كنت أنتظر الساعة التي أعود فيها إلى منزلي؛ لأستمتع بما يقع عليه ناظري، وما تستجمعه أفكاري، وما يستطيبه حسي الأدبي، فأطرب لكل شعر جميل، ونثر فصيح، وقول مليح.

ولقد وجدت في تاريخ الأندلس كثيرا من المآسي التي ذرفت لها عيني، وضاقت بها نفسي، واحترقت لها كبدي، ولولا أن كلمة «لو» تفتح عمل الشيطان لكان جلُّ هذا الكتاب «لو».

نعم، لقد ضاع من الفرص ما لا يمكن حصره؛ بسبب معاول هدم داخلية منها المصالح الشخصية وغلبة الأحقاد ولذة النساء وحب الولد، ومعاول أخرى خارجية لم تترك نافذة يمكن الولوج منها إلاَّ ووجدت وسيلة للنَّفاذ من خلالها.

ضاعت الأندلس بعد أن كانت محطة عبور العلوم إلى أوروبا مدة غير يسيرة من الزمن، وكان ضياعها بأيدي أبنائها في الغالب، فما عسانا نقول، وهل لنا أن نعتبر؟

كان بإمكان الأندلس أن تجعل أوروبا مسلمة فتستفيد أوروبا من الإسلام ويستفيد الإسلام من أوروبا، إلاَّ أنَّ أبناء الأندلس أبَوْا ذلك من خلال ممارساتهم التي كانت خلاف ما أمرهم به باريهم.

فتح المسلمون الأندلس وكان وراء ذلك الفتح امرأة، وسقطت الأندلس بعد أن لعبت النساء دوراً كبيراً في كثير من عهودها.

لقد أرسل «جوليان» حاكم سبتة ابنته إلى لذريق حاكم بلاد القوط بغرض تأديبها بالآداب الملكية، فتاقت نفس حاكم بلاد القوط إليها فواقعها، فشجع حاكم سبتة المسلمين على فتح الأندلس انتقاماً لابنته، وهكذا كانت بداية الفتح للأندلس.

واشترك العرب والبربر دون تمييز في سبيل فتح أرض جديدة للتعريف بالإسلام ونشره، ودعوة من يرغب الدخول فيه، وترك الحرية لمن أراد البقاء على دينه أو معتقده.

في بداية الفتح أبرم الله للمسلمين النصر تلو النصر في أوقات وجيزة وبخطوات متسارعة، فانبهر القوط والإفرنج وغيرهم من هول ما حازه المسلمون، وما تيسر لهم من مغانم، فاجتمعت الإفرنج إلى كتاب المسهب حيث قالت له: «ما هذا الخزي الباقي في الأعقاب؟ كنا نسمع عن العرب ونخافهم من جهة مطلع الشمس حتى أتوا من مغربها، واستولوا على الأندلس وعظيم ما فيها من العدة والعدد بجمعهم القليل وقلة عدتهم، فقال لهم ما معناه: الرأي عندي ألاَّ تعترضوهم في خرجتهم هذه، فإنهم كالسيل يأخذ من يصادره، وهم في إقبال أمرهم، ولهم نوايا تغني عن العدد، وقلوب تغني عن حصانة الدروع، ولكن أمهلوهم؛ حتى تمتلئ أيديهم من الغنائم، ويتخذوا المساكن، ويتنافسوا في الرئاسة، ويستعين بعضهم على بعض، فحينئذ تتمكنون منهم بأيسر أمر، قال: فكان والله كذلك بالفتنة التي طرأت بين الشاميين والبلديين، والبربر والعرب، والمضرية واليمانية، وصار بعض المسلمين يستعين على بعض بمن يجاورهم من الأعداء.

وأقول: وبمثل ما ذكر ضاعت الأندلس، واندرست حضارتها، وبقيت شواهد تلك الحضارة العظيمة فأبكت السابقين من أبنائها، واستمطرت دموع التابعين ممن قرأ عنها أو شاهد آثارها.

لم تخل عصور الأندلس المتلاحقة من المماحكات والأهواء والحقد والتنافس على الرئاسة وحب الانتقام، متفاوتة في نوعها وحجمها، طبقا للظروف السائدة وقدرات القادة، حيث تخبو تارة وتشتعل تارة أخرى.

ومن حسن طالع الأندلس أن الصراع الطائفي والمذهبي لم يكن موجودا في حياة الأندلسيين على امتداد عصورهم المختلفة، فقد ساد مذهب الأوزاعي في بداية الأمر، ثم أعقبه المذهب المالكي في عصر هشام بن عبدالرحمن الداخل حيث أصبح مرتكَزاً لوحدتهم، وبذلك تجنبوا كثيراً من أهوال الحروب المذهبية التي ربما تكون أكثر حدة من حروب المطامع وحب الانتقام.

أما النساء ودورهنَّ، فلم يُسطر التاريخ لهنَّ دوراً فاعلا مع بداية الفتح، باستثناء تلك القصة المتعلقة بعبدالعزيز بن موسى الذي تزوج بزوجة «لذريق» ملك الإفرنج المهزوم، وأنا لا أشك في أنَّ دورهنَّ في البناء كان فاعلا مع بداية الفتح إلا أنَّ المؤرخين أهملوا ذلك.

بعد الفتح جاء العصر الأموي، وقد كان عصر بناء دولة ذات كيان سياسي مستقر مدة طويلة حتى أخذت الأندلس بعده في الترنح ثم السقوط.

دخل عبدالرحمن الداخل الأندلس وهو في الثانية أو الرابعة والعشرين من العمر مستغلا وضعا سياسياً مناسباً استطاع الاستفادة منه بتوفيق من الله أولا ثم بحنكته وحزمه، وحذره الشديد، وحضوره الذهني الدائم، ونيله من خصومه دون رحمة حتى وإن كانوا أقرب الناس إليه رحماً وعوناً.

ومع أن عبدالرحمن الداخل فعل ما فعل، إلاَّ أنَّ الكلمة أجمعت عليه، ليؤسس بذلك دولة فتية أينعت ثمراً طاب مأكله لدى الأندلسيين، وغرس بِذَارَهُ الأوروبيون فكانت نتائجه ما نراه من تقدم في عصرنا الحاضر.

وبعد وفاة عبدالرحمن الداخل، تولى الأمر بعده ابنه هشام الذي كان ورعا، محبا للخير، جَمَّ التواضع، قَدِم في عصره كثير من علماء المذهب المالكي، فساد المذهب وتكونت الوحدة المذهبية.

وبعده تولَّى الأمر ابنه الحكم بن هشام الربضي، وكان على النقيض من والده، منهمكاً في لذَّاته، مجاهراً بها، متكبراً، غارقا في اللهو، قتل الكثير من علماء الدين في موقعة الربض فسمي «الربضي» نسبة إليها.

ثم تولى الإمارة عبدالرحمن بن الحكم ولقب بعبدالرحمن الأوسط، ولقد سار سيرة أبيه في البذخ، وبناء القصور، والاحتجاب عن الناس، كما أحبَّ سماع الموسيقى وشغف بالنساء، لكنه لم يجاهر بمعصية، ولم يقتل بالظنة، ولم يكن قاسياً، على أنَّ شهرته ذاعت لقصته مع حظيته «طَروب» التي قلدها مقاليد قلبه، وسلَّمها مفاتيح أمره بمعاونة أحد الخصيان المسمى «نصر».

وبعد عبدالرحمن الأوسط الذي مات، مخلفاً مئة وخمسين من الأبناء ونحوهم من البنات، تولى الإمارة ابنه محمد ثم المنذر بن محمد ثم عبدالله بن محمد حتى وصلت إلى حفيد عبدالله وهو عبدالرحمن الملقب بالناصر الذي كان عهده واسطة العقد، وكان عهداً ذهبياً للدولة الأموية، وزينة الأندلس علماً وعمراناً واستقراراً ورخاء وهيبة لدى الأمم الأخرى، وقد شيدت فيه الزهراء وكثير من رموز الأندلس العلمية والعمرانية، وقد وفدت الوفود إلى الأمير من سائر البلدان تنشد وده وتطلب مهادنته.

ولم يكن في عهده الكثير من المآسي، فهو عهد ازدهار وهدوء وانحسار للفتن والقلاقل مع عدم خلو عهده منها، فبدلا من فتن الحروب بإشهار السلاح ودكِّ الحصون وكسب الأرض، سادت فتن النساء، ودكّ الصون، وكسب القلوب. حيث كان صراعاً ذهب ضحيته قادة ووزراء وحجَّاب. وصاحَبَ هذا العهد الكثير من صنوف اللهو والمجون والشغف بالنساء.

وبعد وفاته أصبح ابنه الحكم الملقب بالمستنصر خليفة للمسلمين، بعد أن تسمى بالخلافة والده من قبله، وكان صالحاً في نفسه، جمع الكثير من الكتب، ورام قطع الخمر من الأندلس واستئصال شجر العنب، لكنه عدل عن ذلك، واتسم عهده بالهدوء والدعة، اللَّهم سوى خشية من المدِّ الفاطمي القادم من الشرق وبعض القلاقل في الشمال.

وبعده بدأ الترنح في عهد هشام المؤيد، فقد كان عهدا مليئا بالمكر والخداع والتنافس بين أصحاب النفوذ، فذهب ضحيته من ذهب من سُراة القوم، وأصبح الحكم الظاهري في يد صبي في الثانية عشرة من العمر وأمِّه صبح البافارية، أما الحكم في الواقع فكان يتنازعه ثلاثة أقطاب هم الصقالبة مسؤولو القصر، والحاجب جعفر المصحفي وهو رأس الدولة، ومحمد بن أبي عامر مدير الشرطة والقريب من قلب «صبح البافارية»، فكانت الغلبة في نهاية الأمر لسلطان القلب، حيث ظفر ابن أبي عامر بأمور الدولة.

وبهذا تكونت دولة الحاجب المنصور ابن أبي عامر مع بقاء الرمز هشام المؤيد، والحق أنَّ الحاجب المنصور كان صنديدا، مقداما، إذا خُوِّفَ من عقاب الله ازدجر.

وآلت الحجابة بعده لابنه عبدالملك المظفر بالله، حيث امتدت حجابته سبع سنوات، وكانت تسمى «بالسابع» تشبيهاً لها بسابع العروس، على أنَّ عصره لم يكن عصر مآس على مستوى العامة، غير أن بعض المآسي أصابت بعض الخاصة.

وانتقلت الحجابة بعده إلى أخيه عبدالرحمن «شنجول» الذي كان ماجناً مستهتراً، همه اللهو والطرب، وقد انتهى به الأمر إلى أن فرض على الخليفة المؤيد تعيينه ولياً للعهد، فكان في ذلك نهاية عهده وبداية نهاية العصر الأموي قاطبة.

لم يكن من المنطق قبول العامة أو الخاصة تولي عبدالرحمن «شنجول» ولاية عهد الخلافة، فهو ابن حاجب، وأمه ابنة «سانجة» ملك قشتالة عدو الدولة الإسلامية.

استغل هذا الوضع عدد من الناقمين على حكم ابن أبي عامر وأبنائه، سواء لمآرب شخصية أو لدوافع انتقامية، وكان هناك رأسان مدبران لتحويل السخط إلى عمل ميداني، كانت «الذلقاء» والدة عبدالملك المظفر أحد الرأسين؛ ظناً منها أنَّ عبدالرحمن «شنجول» قد سمَّ ابنها عبدالملك المظفر للاستيلاء على السلطة، فراسلت بني مروان للوثوب على من انتزع حقهم، وأمدتهم بالمال والأتباع، فنهض محمد بن هشام المرواني الملقب بالمهدي واستطاع السيطرة على قرطبة، وحبس الخليفة هشام المؤيد، وداهم قصر الذلقاء التي ساعدته وأعانته على الخروج، ومات أحد أهل الذمة، فشهد الوزراء والفقهاء أنَّ الميت هو الخليفة هشام المؤيد، فكان خليفة المسلمين الجديد هو محمد بن هشام المرواني الملقب بالمهدي الذي أكَبَّ على شرب الخمر، فترَكَ شؤون الحكم.

وقام سليمان بن الحكم بن عبدالرحمن الناصر طالباً الخلافة مستعينا بالبربر والنصارى مسمِّياً نفسه المستعين بالله، ودخل قرطبة، فهرب الخليفة محمد بن هشام المهدي، ليستعين بأحد أعدائه من النصارى في طليطلة، وينتصر المستعين ليدخل قرطبة، ثم يُخْرِجُ الخليفة هشام المؤيد الذي كان مسجوناً وأُظْهِرَ أنه مات، لِيَجْتَزَّ رأس محمد بن هشام المهدي، وبهذا يعود هشام المؤيد المتوفى افتراضا إلى ساحة الأحداث، وأرسل دعاة الخليفة هشام المؤيد برأس الخليفة المهدي إلى الخليفة المستعين طالبين منه مبايعة الخليفة المؤيد الذي ظهر فجأة، لكن الخليفة المستعين بالله رفض، فدارت معركة انتهت بفوز الخليفة المستعين، وهكذا معارك الخلفاء.

استدعى بعض أعيان قرطبة علي وقاسم أبناء حمود بن ميمون الإدريسي الحسني، وكانا وَالِيَيْنِ على سبتة والجزيرة الخضراء، وطُلب منهما العون للتخلص من الخليفة المستعين، فقدما وأعلنا وفاة هشام المؤيد وقتلا المستعين بالله مع أبيه وأخيه، وتمت مبايعة خليفة لم يكن مروانياً إنما حسنياً، غير أنَّ عبدالرحمن بن محمد بن عبدالله بن عبدالرحمن الناصر قام مدعياً الخلافة لنفسه وتسمى بالمهتدي لكنَّه قتل في الحمام، فسار الخصيان إلى استقدام أخيه القاسم لتولي الأمر، فتولاه وتلقب بالمأمون، لكنَّ يحيى بن علي قام عليه، فانسحب القاسم إلى إشبيلية فأصبح يحيى خليفة في قرطبة، وعمه سليمان خليفة في إشبيلية مع اعتراف متبادل بينهما، وهذا من الغرائب، وشاهد على ما آلت إليه الأندلس.

وثار أهل قرطبة على يحيى، وتولى أمرهم عبدالرحمن بن هشام بن الحكم وتلقب بالمستظهر بالله، لكنه قتل على يد ابن عمه محمد بن عبدالرحمن الملقب بالمستكفي، وهو والد «ولاَّدة» الأديبة الشهيرة، وصاحبة ابن زيدون الذي كانت على يده نهاية الدولة الأموية بالأندلس وبداية مرحلة حكام الطوائف.

كان حكام الطوائف قد رسَّخوا نفوذهم فيما تحت أيديهم قبل استقلالهم بزمن، ولذا لم يكن مفاجئاً ظهور ابن جهور في قرطبة، وابن عباد في إشبيلية، وابن ذي النون في طليطلة، وابن هود في سرقسطة، وغيرهم.

وبعد زوال الخلافة استقل كل ذي نفوذ بما تحت سلطانه، وكانت إحنٌ وحروبٌ بين هذه الطوائف انتهت بسقوط طليطلة وكثير من الحصون ودفع الجزية للنصارى، ثم استنجاد أخيار الأندلس بالمرابطين في المغرب؛ طلباً للعون على العدو المشترك، فكان فيه زوال حكمهم.

وكان حكمهم متجهاً إلى الزوال سواء على يد النصارى أو المرابطين، فكان قدوم المرابطين سبباً في تأخير استيلاء النصارى على الأندلس.

وجاء المرابطون وهم من قبيلة «لمتونة» وهي إحدى بطون صنهاجة البربرية ويعرفون بالملثَّمين،كانوا يدينون بالمجوسية ثم أسلموا وحسن إسلامهم، وكانت حركتهم دينية في الأصل بقيادة «عبدالله بن ياسين» الذي كان ورعا، تقيّاً، شديد الغيرة على دينه، لكنه كان شغوفاً بالنساء، يتزوج كل شهر عدداً منهنَّ ويطلقهنَّ، وبعد وفاته تولى «أبو بكر اللمتوني» قيادة الدولة وحركة المرابطين ليصبح مؤسس دولة المرابطين، واختار ابن عمه «يوسف بن تاشفين» لمؤازرته -وقد كان كما ذكرت الروايات تقياً، ورعاً، متديناً- عبر البحر بدعوة من بعض حكام الطوائف فكانت معركة الزلاقة الشهيرة التي انتصر فيها المسلمون نصراً مؤزراً مع قلة عددهم وعدتهم، ومع تحقيقه هذا النصر فإنه لم ينتهز الفرصة ويواصل المسير بل عاد بسبب وفاة أحد أبنائه، لكنه عاد مرة أخرى بدعوة من حكام الطوائف، فتمنَّع بعضهم وحاول المقاومة، ومنهم المعتمد بن عباد، أكثرهم شهرة وأقربهم لقلوب الناس، وكان مآله أحدوثة تغنَّى بها الشعراء والخطباء، كما نُسِجَ عدد من الأبيات الشعرية التي تجسد مأساته، وتوفي ودفن في أغمات بالقرب من مدينة مراكش المغربية وقال بعض الأبيات الشعرية التي كتبت على قبره ومازالت إلى الآن.

مات يوسف بن تاشفين في عام ٥٠٠ هـ وعمره مئة عام، وتولى الحكم بعده ابنه يوسف، وحقق بعض الإنجازات، إلاَّ أنَّ مآسي الأندلس تتدفق تدفق السيل من قمم الجبال، وكلما اطمأن الناس ورجوا دوام الحال خرج للفتنة مُوقد، وللحرب مُشعل، وللسكينة مُجافٍ، وللحق مُنافٍ.

فقد واجه بعضاً من الحوادث الداخلية والحروب مع النصارى مثل معركة «القلاعة» التي انهزم فيها المسلمون وكان الأخطر على المرابطين تلك الحركة التي أخذت تنتشر في المغرب ويستفحل أمرها بقيادة «محمد بن تومرت المهدي».

بعد وفاته تولى إمارة المسلمين «تاشفين بن يوسف» الذي لم يدم عهده سوى ثلاث سنوات لم يستقر له فيها قرار، تنبو به البلاد، وتتنكر له العباد، فلم يزل كذلك حتى قتل بعد محاصرته من قبل الموحدين.

في ظل حكام الطوائف سقطت طليطلة، وفي نهاية حكم المرابطين سقطت سرقسطة وتطلية وما حولها، وسطرت لنا الأحداث اللاحقة تناثر هذا العقد الثمين وزوال سلطان المسلمين.

خرج رجل يقال له محمد بن تومرت وهو من أبناء الحسين بن الحسن بن علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- تسمى بالمهدي وقام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعندما وصل إلى المهدية نزل في مسجد وجلس منه في طابق مشرف على الطريق العام ينظر إلى المارَّة، فلا يرى منكراً من آلة الملاهي أو أواني الخمر إلاَّ نزل إليها وكسرها.

والتقى ابن تومرت مع رجل يقال له عبدالمؤمن يعلم الصبيان، فسأله ابن تومرت مساعدته للقيام بالدعوة، فوافق وهادن المرابطين في بادئ الأمر ثم انتقل من المهادنة إلى المواجهة، ومن غزو اللسان إلى الحرب والطعان، فجهز جيشاً من أتباعه وأمَّر عليهم عبدالمؤمن، وقال: أنتم المؤمنون وهذا أميركم، وبعد مدة مات محمد بن تومرت وتولى القيادة السياسية والعسكرية عبدالمؤمن بن علي، فقامت معركة انتصر فيها الموحدون، فتهافت ما بقي من ولاة الأندلس على تقديم الولاء والطاعة للأمير الجديد.

وبعد وفاة عبدالمؤمن أصبح أمر المسلمين في يد ابنه يوسف، وبعده ابنه يعقوب بن يوسف بن عبدالمؤمن وتلقب بالمنصور، وكان عصره عصر انتصار، لكنَّ مأساة الأندلس معه كانت من الناحية الفكرية، بإدخال فكر جديد له تبعاته الثقافية وتوظيفاته السياسية.

وبعد وفاته تولى ابنه محمد الناصر وكان عمره سبع عشرة سنة، وفي عهده كانت موقعة العقاب المشهورة التي كانت عقابا لكل ما فعله الأندلسيون والمرابطون والموحدون، ولقد جرَّ على المسلمين بسوء تدبيره كارثة كبيرة تعد أكبر الكوارث في الأندلس على الإطلاق.

انهزم محمد الناصر، واحتجب عن الناس منغمساً في لذّاته، مقيماً عليها مصبحاً مغتبقاً، ويبدو أنه أصيب بصدمة نفسية جعلته يهرب من الواقع، وهذا ليس طريق المؤمنين.

مات محمد الناصر بعضَّة كلب، أو مسموماً، أو حتف أنفه، حيث اختلف في ذلك الرواة، وتولى ابنه الشاب يوسف المستنصر البالغ ست عشرة سنة، وكان شاباً كثير اللهو من هواة رعي الأبقار وترويضها، فبينما هو كذلك ذات يوم يحاول ترويض بعض أبقاره هجمت عليه بقرة شموس وضربته بقرنها، فأصابت قلبه، وكذلك كانت منيته.

وبعد أن قتلت البقرة الخليفة المستنصر الذي لم يوَرِّث ولداً، أجمع المشايخ على تولية عبدالواحد بن يوسف بن عبدالمؤمن، وكان في الستين من عمره، وتنافس القوم الرئاسة، واختلط الحابل بالنابل، وأضحى كل واحد من الموحدين يدعي أنه الأحق بالأمر، وعلينا أن نتذكر أنَّ الأندلس في تلك المدة كان يحيط بها ثلاث ممالك نصرانية، أرجوان من الشرق، وقشتالة من الوسط، وليون من الغرب، وكانت هذه الممالك النصرانية تهاجم دويلات الأندلس الإسلامية التي لا تفتأ تتحارب فيما بينها، ويستنجد بعضها بإحدى الممالك النصرانية المجاورة للذود عنها من دويلات إسلامية أخرى، أو يتم عقد هدنة مقابل مبلغ كبير من المال يتم جمعه من حُرِّ مال الناس؛ ليتم دفعه لعدوهم نظير بقاء زعيم هذه الدويلة أو تلك على كرسي الحكم.

سقطت قرطبة بأيسر السبل في يد «أدفونتش» فكان جرحاً غائراً، فقد حلَّ بها ما يلينُ له القاصي، وتنهدُّ له الجبال الرواسي، وكانت أحداث في مدن أندلسية أخرى ومنازعات على الزعامة، فأخذت الأندلس تتهاوى شيئاً فشيئاً، ابتداء بطليطلة ومروراً بقرطبة ثم مدن أخرى في مدة لم تتجاوز ثلاثين عاما.

وعندما رأى ملك أرجوان أنَّ ملك قشتالة قد استولى على قرطبة دون عوائق، قرر السير للاستيلاء على بلنسية؛ لأنها تقع ضمن الأراضي المستهدفة للاستيلاء والخاصة

به طبقا لاتفاق مسبق، وحاصرها فلم يجد «زيَّان» حاكمها من يناصره، فأرسل ابن الأبار إلى حاكم تونس يستصرخه، وفي نهاية الأمر استسلمت بلنسية.

في خضم هذه الأحداث، كانت أشبيلية تحكم نفسها حكما ذاتيا، فعزم فرناندو الثالث ملك قشتالة آنذاك على إسقاط أشبيلية، فأخذ إذناً من البابا بأن يدفع ثلث ما يقدم للكنيسة من الأموال؛ لتدفع تكاليف تجهيز الحرب، فحاصرها مدة خمسة عشر شهراً، ثم استسلمت ودخل القصر وأمر بتحويل مسجدها إلى كنيسة، وهكذا تم له ما أراد وساعده في ذلك ابن الأحمر حاكم غرناطة؛ تنفيذا لاتفاق فرض عليه فامتثل له؛ خشية زوال سلطانه.

مأساة حقيقية لحقت بالأندلسيين وبالإسلام من جرَّاء هذا المصير المؤلم، فيا لها من مأساة! كانت نتاج أخطاء متتالية، ومصالح متباينة.

وبقي ابن الأحمر في غرناطة، لتتكون مملكة غرناطة الصغيرة بعد سقوط مدن الأندلس الأخرى، وشاء الله أن تستمر هذه المملكة الصغيرة قرنين ونصف القرن بعد السقوط الكبير للأندلس، لكنَّ هذه المملكة لم تنل كامل حريتها فقد كانت تدفع الأموال لأعدائها المحيطين بها، وفي نهاية عهدها استمر التدهور الداخلي، وعزم ملك قشتالة على إنهاء المملكة المتهالكة فحاصرها، ودخلها، لينتهي الفصل الأخير من مأساة الأندلس بقول عائشة الحرة والدة أبي عبدالله الصغير لابنها: «ابك مثل النساء على ملك لم تحفظه مثل الرجال».

إنَّ المأساة الحقيقية في الأندلس تكمن في لذَّتين، لذَّة السلطة، ولذَّة الشهوة، ومنهما انبثق كل خطر داهَمَ الأندلس، فلذَّة السلطة تجعل التضحية بالناس والأرض والمال مباحة في سبيل الإمساك بها، ولذة الشهوة تجعل الحاكم الأندلسي يضعف أمام الجواري، والزوجات، والأبناء، والشراب، فتتم التضحية بحسن التدبير، وتولية الخبير، والحفاظ على بيت مال المسلمين.

لقد سطرت هذا الكتاب بعد أن اجتهدت ما استطعت في جمع كل شاردة وواردة حول الموضوع، مجتهداً في أن أكون قد وفقت في نقل شيء عن مآسي الأندلس والأندلسيين، راجيا أن أتبعه بكتاب عن مباهجهم؛ حتى يرى القارئ الوجه الآخر لهذا التاريخ الممتلئ بالأحداث أتراحا وأفراحا، راجياً من العلي القدير العون والسداد والتوفيق فيما أقول وأفعل.

openkanal.com